الانتفاضة الفلسطينية:

نهاية المراهنات القومية لمصلحة الوطنية الفلسطينية

استعرض الرئيس صدام حسين قبل اسابيع بكل زهو وهو يطلق الرصاص من على منصة عامة في بغداد، وعلى مدى ساعات، الاف "المتطوعين" العراقيين من "اجل تحرير فلسطين"، وهم يدوسون باقدامهم صور الدولار الامريكي.

ان استخدام المعاناة الفلسطينية كورقة سياسية ليس بالجديد على العرب عموماً والعراق خصوصاً، حيث استخدمت وبخاصة في اعقاب اي هزيمة فلسطينية او عربية اداة لتكريس الاستبداد او للقفز على السلطة باسم "تحرير فلسطين".

فانقلاب 1941 في العراق اطاح بالشرعية الدستورية وانحاز الى المانيا النازية بتأثير القضية الفلسطينية والفلسطينيين، الامر الذي انتهى باحتلال العراق مجددا بقوات بريطانية.

وهزيمة العرب في حرب 1948، فتحت الابواب واسعة للانقلابات العسكرية باسم "تحرير فلسطين" فاطاحت بما كان موجودا، على ضعفه، من ممارسات ديمقراطية وبرلمانية في دول مثل سورية ومصر.

وتكررت التجربة مرة ثانية بعد هزيمة 1967 حيث توسعت رقعة الدكتاتويات العسكرية في انحاء العالم العربي لتمتد الى مغربها.

واعتبر قادة انقلاب 1968 في العراق "ثورتهم" بمثابة "الرد" على هزيمة 1967، فسحقوا باسم "كل شيء من اجل المعركة" كل القوى السياسية التاريخية في العراق من كرد وشيوعيين وديمقراطيين واسلاميين وحتى القوميين منهم، وكرست بذلك اعتى الدكتاتوريات في العالم العربي، وقادوا البلاد الى حروب لا مبرر لها ضد ايران والكويت، كل ذلك باسم "تحرير فلسطين".

وباتت القضية الفلسطينية مشجبا لتعليق كل مساوىء الدكتاتوريات العربية، بما في ذلك تأجيل الانفتاح الديمقراطي واحترام حقوق الانسان.

ان الاستغلال السلبي للقضية الفلسطينية ليس مقصورا على النخب الحاكمة بل امتد الى القوى الحزبية المعارضة. ومن المفارقات ان يسقط عبد الكريم قاسم، الذي شارك في حرب 1948 وشرع في اقامة وتدريب اول جيش فلسطيني عام 1959، ضحية حزب البعث وعداء القوميين له بتهمة الشعوبية والدكتاتورية.

ان معظم الاحزاب القومية، ان لم يكن جميعها، التي افرزتها هزيمة العرب في فلسطين جعلت من "الانقلابية"، و"الثأر" و "الدم والحديد والنار"، والوصاية على الشعب باسم "الطليعة" بديلا عن الديمقراطية والبناء الاقتصادي. وذهبت الى اكثر من ذلك باعاقة التحولات الديمقراطية في العديد من الدول العربية وكرست الممارسة الدكتاتورية عند استلامها السلطة باسم "تحرير فلسطين".

ان هذه القوى التي استلمت السلطة في الخمسينات والستينات باسم "تحرير فلسطين" تسببت في ضياع المزيد من ارض فلسطين كما انها كانت اكثر دكتاتورية.

الوطنية الفلسطينية وليس القوميةالعربية

ان الفلسطيني يحارب اليوم باسم الوطنية من اجل اقامة الدولة الفلسطينية على الارض المحتلة عام 1967، وقد حصر المقاومة بذكاء في داخل الاراضي المحتلة عام 1967، وبذلك كسب العطف كمحارب من اجل الاستقلال والتحرر من الاحتلال، وليس كقومي عربي يطالب بازالة "الكيان الصهيوني" وغيرها من شعارات "الثورة العربية" و "الوحدة العربية" التي اعتاد عليها الشارع العربي في الخمسينات والستينات.

فالفلسطيني يحارب اليوم عن ارض فلسطينية يعيش عليها، وليس من ارض شعب عربي اخر ولا يريد ان يكون مصيره مصير لاجيء عام 1948 او عام 1967 حيث اكتشف بالملموس ان شعارات "الاخوة" العربية و"القومية العربية" ليستا بديلا عن وطن ودولة فلسطينية. خاصة وان تجربة العمل الفلسطيني في مواطن عربية اخرى (الاردن ولبنان وسورية) اثبتت فشلها الى حد القطيعة عندما ارادت الحركة الفلسطينية فرض اجندتها السياسية على الاولويات الوطنية لتلك البلدان العربية، و"ايلول الاسود" مجرد مثال.

هنا اخطأ الاسرائيليون في فهم اهمية ما تبقى من الارض بالنسبة للفلسطيني، فان الضفة الغربية وغزة باتت اليوم "مسادا" الشعب الفلسطيني. وبالمقابل نجحت القيادة الفلسطينية في مزاوجة البعد الوطني بالديني عندما جعلت انهاء احتلال المقدسات الاسلامية والمسيحية هدفا لها، وهذا ما شهدت عليه قمة الدوحة الاسلامية بالحضور الفلسطيني المسيحي المكثف.

ان الهم الوطني وليس القومي اخذ يحتل الاولوية في فكر النخب السياسية العربية ومنها الفلسطينية، فانطلاقة "فتح" هي بالاساس تعبير عن هذا التحول. وبعد عقود من النضال استطاعت الحركة الوطنية الفلسطينية انتزاع شرعية التمثيل الفلسطيني من الوصاية العربية التي مورست باسم "القومية".

كما ان مشاعر التضحية في ثلاث حروب مع اسرائيل دفعت المواطن المصري للقول: هل يريدون تحرير فلسطين باخر جندي مصري؟ ان هذه القناعة كانت وراء التحول لصالح مسيرة السادات السلمية والتي استرجع بها ما كان

محتلا من ارض الوطن المصري.

وكذلك حال ابن الجنوب اللبناني، الذي طالما وظف لخدمة الاجندة الحزبية لقوى خارج منطقته باسم القومية، ولم يستعد اللبناني دوره الا عندما اخذ يحارب لتحرير ارض لبنانية محتلة، وفي هذا كان سر نجاحه في تحقيق الانسحاب الاسرائيلي من الجنوب اللبناني. الامر الذي لم تستطع المقاومة الفلسطينية التي عاشت سنوات في لبنان وبالذات في جنوبه من تحقيقه، وذلك لان اولوية العمل الفلسطيني كانت "استنزاف" اسرائيل بابناء الجنوب اللبناني وليس انسحاب اسرائيل من الجنوب اللبناني.

❋ ❋ ❋

ان تجربة نصف قرن من الصراع العربي الاسرائيلي، اثبتت اولوية البعد الوطني على الوهم القومي، وليس هناك من نظام عربي مستعد للتضحية بالعامل القطري او الوطني من اجل "القومي"، ولكن هناك من لايزال يلبس العباءة القومية لتمرير اضيق السياسات القطرية.

وخير مثال على ذلك صواريخ صدام حسين على اسرائيل ابان حرب الخليج الثانية، التي انتهت بخدمة اسرائيل وخسارة اكثر من ربع مليون فلسطيني مواقع عملهم في الخليج.

واليوم يزايد صدام حسين على السلطة الفلسطينية بمطالبتها التخلي عن مبدأ السلام مقابل الارض الذي هو اساس الشرعية الدولية لاستقلال الضفة وغزة، بقوله اثناء اجتماع لمجلس الوزراء العراقي في منتصف تشرين الثاني الماضي: "ان موضوع استبدال الارض بالسلام موضوع لا نؤمن به"، ويضيف مطالبا مصر والاردن الغاء اتفاقاتهما مع اسرائيل.

ان هذا الخطاب المتطرف هو عين الخدمة لمتطرفي اسرائيل، فبطل اقتحام الاقصى واحتلال بيروت اريل شارون هو اول المطالبين باسقاط معادلة الارض مقابل السلام، وهكذا يغذي متطرفو اسرائيل وصدام بعضهم بعضا.

ان اعتبار السلام خيار استراتيجي، لا يعني الاستسلام للواقع بل العمل لتغييره ولو باستخدام العنف من اجل التوصل الى تسوية سياسية، وبهذه الحالة تصبح الانتفاضة امتدادا للعمل السياسي وليس بديلا عنه.

فالانتفاضة اثبتت عبء المستوطنات اليهودية في غزة والضفة على اسرائيل، وان استنزاف الفلسطينيين اقتصاديا سيخلق مزيدا من الاحباط وبالتالي استمرار الانتفاضة. كما ان استمرارها وفشل الوساطة الامريكية وانشغالها بالانتخابات فتح الباب مجددا للوساطة الاوروبية والروسية. ولاول مرة لا تعارض واشنطن ولا اسرائيل وساطة اوروبية او روسية خاصة وان هناك جالية روسية كبيرة في اسرائيل.

من هنا نجد ان القيادة الفلسطينية على امتداد استمرار الانتفاضة ابقت الابواب مفتوحة للمفاوضات مع الحكومة الاسرائيلية، وبالمناسبة هذا ما قامت به الثورة الفيتنامية التي كانت تقاتل وتتفاوض في آن واحد. المهم ان يكون الهدف الفلسطيني من هذه الانتفاضة واضحا وبحدود الممكن وتحت سقف الشرعية الدولية.

وما يظهره الشارع الفلسطيني من تعاطف مع صدام حسين نكاية بامريكا قد يصبح ورقة بيد القيادة الفلسطينية للضغط على امريكا، وليس قناعة بدور لصدام في "تحرير فلسطين".

وبالمقابل يستغل صدام الورقة الفلسطينية والعداء لامريكا لكسب عطف الشارع العربي بما يفك عزلته ويديم سلطته في بغداد، ويبقى هناك دائما من العرب من يريد محاربة امريكا باخر حاف عراقي.

ان تصفيق بعض الشخصيات ووسائل الاعلام العربية لطغاة عرب بدوافع اقتصادية او سياسية انتهازية يبقى امرا مفهوماً، اما القول بان دوافع ذلك التصفيق لصدام حسين هو "التعاطف مع الشعب العراقي" او "الاخوة العربية" فهو اهانة لفطنة الفرد العراقي الذي لم يعرف من نظام صدام سوى القهر والحرمان و "التطوع" في حروب كارثية.

(الملف العراقي، العدد 108، كانون الاول 2000)

❊ ❊ ❊